الجانب التداولي في الصوت المفرد - النظير الصوتي نموذجًا

م. د. فؤاد عجمي علي الساعدي
مدرس في مديرية تربية محافظة بغداد الرصافة الثالثة

البريد الإلكتروني : Fuadajmi@gmail.com

الكلمات المفتاحية : الصوت المفرد ، النظير ، الانسجام ، الاقتصاد اللغوي

الملخص

على الرغم من كثرة ما كُتب عن التداولية نلاحظ خلوّ هذه الكتب من دراسة الصوت المفرد ، وأثره في عملية التواصل اللغوي . فقد غصّت هذه الكتب من كثرة بيان أثر الجملة في عملية التواصل ، وأثر اللفظة في ديمومة هذا التواصل ، على الرغم من أن هذه الألفاظ والجمل أساسها الأصوات المنتظمة في سلسلة صوتية ، فكان من اللازم دراسة مكونات المفردة اللفظية بجزئياتها المكوّنة لها (الأصوات) والانطلاق من هذه الجزئيات نحو المفردة والجملة ، لذا فقد كرّست جهدي لتقديم دراسة موجزة عن الصوت المفرد ، وأثره في توازن المعادلة الصوتية بين أساساتها التي بُنيت عليها ، فكان اختياري لِـ(النظير الصوتي) وعلل استعماله في التواصل بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد . وأرجو من هذه الإسهامة – على إيجازها – أن أضع قدمًا في ساحة التداولية . ومن الله تعالى العون .

The Pragmatic Aspect of the Singular Voice

the Phonemic Analogy as a Model

Assist. Dr. Fouad Ajami Ali Al-Saadi

Teacher at the Directorate of Education of Baghdad Governorate, Rusafa III

Email : Fuadajmi@gmail.com

Keywords: singular voice, analogy, harmony, linguistic economy

Abstract

Despite the many books that have been written about pragmatics, we note that these books are devoid of studying the singular voice, and its impact on the process of linguistic communication. These books were filled with a great deal of explaining the impact of the sentence in the process of communication, and the effect of the word on the permanence of this communication, despite the fact that these words and sentences are based on regular sounds in a phonetic series, so it was necessary to study the components of the verbal vocabulary with its component parts (= sounds) and start from these particles toward the vocabulary and the sentence, so I devoted my effort to presenting a brief study on the singular sound, and its impact on the balance of the phonetic equation between its foundations on which it was built. It was my choice for the (phonetic analogue) and the reasons for its use in communication between the members of the same linguistic community. I hope this contribution- in short - to set foot in the arena of pragmatics. , and from God Almighty help.

بسم الله الرحمن الرحيم

ها نحن في أعتاب القرن الحادي والعشرين نجني ثمار ما زرعه لسانيو منتصف القرن المنصرم ، بعدما غيّروا اتجاه القبلة البحثية صوب حصون النصيّة والتداولية ، والتحرر من سطوة اللسانيات الصارمة ، القابعة تحت ظلال الاتجاه الشكليّ في دراسة اللغة . والانطلاق نحو فضاءات جديدة تتخذ من دراسة اللغة في الاستعمال أساسًا في رصد الظواهر الصوتية ، والصرفية ، والتركيبية ، والدلالية . وقد تمخّض هذا الاتجاه عن ولادة (التداولية) لدراسة التواصل اللغوي ، الذي يدرس اللغة عبر المنجز اللفظي في سياق معيّن.

وبعد انزلاق اللسانيين في غياهب البحث التداولي، واكتمال ملامحه الفارقة عبر كثرة منابعه، واتساع مشارب الباحثين فيه ، ارتأيت أن أواكب هذا المدّ اللساني الحديث في محاولة البحث في إحدى جزئياته ، ألا وهي الدراسة الصوتية من وجهة نظر تداولية .

ولكن ما أثار انتباهي – على قدر اطلاعي اليسير وعلى الرغم من كثرة ما كُتب عن التداولية – خلوّ هذه الكتب من دراسة الصوت المفرد ، وأثره في عملية التواصل اللغوي . فقد غصّت هذه الكتب من كثرة بيان أثر الجملة في عملية التواصل ، وأثر اللفظة في ديمومة هذا التواصل ، على الرغم من أن هذه الألفاظ والجمل أساسها الأصوات المنتظمة في سلسلة صوتية، فكان من اللازم دراسة مكونات المفردة اللفظية بجزئياتها المكوّنة لها (الأصوات) والانطلاق من هذه الجزئيات نحو المفردة والجملة ، فكانت دراسة الصوت – بحقّ – (أعزّ مفقود ، وأهون موجود) ، لذا فقد كرّست جهدي لتقديم دراسة موجزة عن الصوت المفرد ، وأثره في توازن المعادلة الصوتية بين أساساتها التي بُنيت عليها ، فكان اختياري لِـ(النظير الصوتي) وعلل استعماله في التواصل بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد . وأرجو من هذه الإسهامة – على إيجازها – أن أضع قدمًا في ساحة التداولية . ومن الله تعالى العون والسداد .

التمهيد

التداولية

بدأ الاعتقاد يسود لدى بعض اللغويين في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين أن ما أنجزه البنيويون لا يعدو أن يكون سوى دراسة لبعض جوانب اللغة دون بعضها الآخر ، وأنّه يتعيّن على اللسانيات أن تتجاوز نفسها لتصل إلى نظرية أكثر شمولية عن اللغة[1] .

وقد أفضت جهود اللغويين إلى ظهور اتجاه جديد في البحث اللغويّ ، يسمّيه بعضهم المنهج الوظيفي التواصلي ، ويسمّيه بعضهم الآخر (اللسانيات التداولية) ، ويستمد هذا الاتجاه مقوّماته من آفاق جديدة ، ويحاول الذهاب إلى أبعد من الحدود التي رسمتها البنيوية[2] . لذا عُنيَ دارسو اللغة بآثار تفاعل اللغة مع الظروف والمقامات في المجتمع ، وكيفيات استعمالها داخل النظام الاجتماعي ، حيث يحدث التفاعل بين المرسل والمتلقي[3] . ويذهب الدكتور مسعود صحراوي إلى أن " أقرب حقل معرفي إلى التداولية في منظورنا هو (اللسانيات) . وإذا كان الأمر كذلك فإنه من المشروع البحث في صلة هذا العلم التواصلي الجديد باللسانيات وبغير اللسانيات من الحقول المعرفية الأخرى التي تشترك معها في بعض الأسس المعرفية ، نظرية كانت أم إجرائية "[4] .

وقد طرح اللسانيون في كتبهم عشرات التعريفات للتداولية ، وخلُصَ الدكتور محمد الأخضر الصبيحي إلى أن أوجز تعريف وأقربها إلى القبول هو تعريف (ج . يول) بأن التداولية : " هي دراسة اللغة في الاستعمال (IN USE) أو في التواصل (IN INTERACTION) خاصة وأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متأصلًا في الكلمات وحدها ، ولا يرتبط بالمتكلم وحده ، ولا بالسامع وحده . فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (ماديّ ، واجتماعيّ ، ولغويّ) وصولًا إلى المعنى الكامن في كلام ما "[5] .

فالتداولية إذن تُعنى بالكيفيّة التي تتحقق بها اللغة عند الاستعمال، وعند التخاطب، وتُعنى بمقاصد المتكلم، والبحث في أغوار معاني الكلام والمتكلم، ومحاولة اكتشاف الأغراض التي يريدها المرسل عبر رسالته ، وهي تؤسس لمقاصد المخاطبين والمشاركين في عملية التخاطب . وهي بمثابة العقد والاتفاق الضمني بين المرسل والمتلقي المشاركين في عملية التخاطب، فكلاهما يسعى إلى جعل شبكة الاتصال دائمة ومتواصلة[6] .

وتتلخص مهام التداولية في " دراسة (استعمال اللغة) ، التي لا تدرس (البنية اللغوية) ذاتها ، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة ، أي باعتبارها (كلامًا محددًا) صادرًا من (متكلمٍ محددٍ) وموجّهًا إلى (مخاطبٍ محددٍ) بـ(لفظٍ محددٍ) في (مقامٍ تواصليّ محددٍ) لتحقيق (غرضٍ تواصليٍ محددٍ) "[7]

ولم يكن مفهوم التداولية غائبًا عن أذهان علماء العربية الأوائل ، وإن لم يكن بالمسمى نفسه. فالإشارات لعملية التواصل بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد كثيرة في التراث العربي . وسأقتصر على تعريف الجاحظ للبيان قصدًا للتمثيل لا الحصر ، وتجنبًا للإطالة في هذه الإشارات . قال الجاحظ (ت 255 هـ) : " البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ... وأن مدار الأمر والغاية التي تجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع "[8] .

النظير الصوتي : المصطلح والمفهوم

النظير لغةً : جاء في كتاب العين : " نظير الشيء : مثله ، لأنه إذا نُظر إليهما كأنهما سواء في المنظر ، وفي التأنيث نظيرة وجمعه نظائر ، وتقول : ما كان هذا نظيرًا لهذا "[9] .

النظير اصطلاحًا : استُعمل مصطلح النظير في أغلب العلوم ، اللغوية وغيرها ، فقد جاء في علوم القرآن ، وفي أصول العلوم ، وعند الفلاسفة وعلماء الكلام ، وعند اللغويين والنحويين والبلاغيين ، وفي العلوم الطبيعية (الفيزياء والكيمياء والرياضيات) ، وفي علم الأصوات اللغوية ، وسأقتصر على تعريف النظير عند الأصواتيين .

إن مصطلح (النظير الصوتي) هو مصطلح حديث لمفهوم قديم ، بُنيَ على أساسات علمية راسخة ، وله جذور ضاربة في أعماق التراث العربي ، فقد أشار علماء العربية المتقدمون منهم والمتأخرون إلى مفهوم النظير الصوتي بمسميات أخرى ، ترادف أو تقترب كثيرًا من معنى (النظير الصوتي) في الدراسات الحديثة ، نحو : الشِبْه ، المِثل ، المضارع ، المقارب ، الأخت ، المجانس ، المنزلة ...[10] . ويُعدّ النظير الصوتي ظاهرة لغوية كبيرة في اللغات ، ولا سيّما العربية ، وله أثر كبير في التمهيد لظواهر أخرى كالإدغام – مثلًا – فهو وسيلة لغاية . ويمكن أن تكون هذه الغاية وسيلة أخرى لطلب الخفّة والانسجام الصوتي ، أو العمل من وجه واحد[11].

ويمكن تعريف النظير الصوتي بأنه : " فونيم وظيفي له القدرة على تغيير المعنى ، وهو فونيم سياقي إذا تجرد من هذه الوظيفة ، يمثّل قيمة استبداليه نتيجةً لتأثير البيئة الصوتية الحاضنة له ، يلجأ إليه المتكلم لأسباب صوتية أو دلالية ، ويشترك هذا النظير الصوتي مع نظيره من الناحية النطقية (= الفسيولوجية) ، ومن الناحية الفيزيائية (= الأكوستيكية) ، ويفترقان في إحدى الصفات التمييزية أو موضع النطق "[12].

ومصاديق استعمال النظير في العربية كثيرة جدًا ، وهو عنصر رئيس في بعض الظواهر الصوتية ، نحو : المماثلة الصوتية بأنواعها ، والإدغام ، والإمالة ، والإتباع الحركي وغيرها . ولتوضيح هذا الأمر هذه بعض الأمثلة[13] :

1- ما جاء على (الافتعال) وفاؤه طاء ، فيُبدل فيه الطاء المطبقة بنظيره الصوتي المنفتح (= التاء) ، نحو : (اطّلع ، يطّلع ، اطّلاع ، مطّلع ...) . وما جاء على (الافتعال) وفاؤه دال ، فيُبدل فيه الدال المجهور بنظيره الصوتي المهموس (= التاء) ، فيُدغم الدال الأصل في الدال المُبدل ، نحو : (ادّعى ، ادّان ، ادّخر ...) .

2- ما جاء على (الافتعال) وفاؤه أحد أصوات الإطباق (الصاد ، والضاد ، والظاء) فتُستبدل فيه الطاء المطبقة بنظيره الصوتي المنفتح (= التاء) ، نحو : (اصطبر ، اصطفى ، اضطرب ، اضطجع ، اضطلم ...) .

3- الفاظ نحو (مذكر) ، أصلها (مذتكر) على (مفتعل) من الذكر ، فقُلبت التاء دالًا لتوافق الذال في الجهر ، وأُدغمت الذال فيها .

إن أغلب العلل الموجبة لاستعمال النظير الصوتي فيما تقدم مرهون بآلية تفاعل صوتي بين الأصوات المتجاورة بكيفية معينة ، تختلف من سياق صوتي إلى آخر ، وتحتكم إلى مسببات يفرضها المناخ الصوتي للمفردة[14] .

علل استعمال النظير الصوتي في العربية

1- الانسجام الصوتي

لمّا كانت الألفاظ هي اللبنات الأساسية في اللغة (الرسالة) بين المرسل والمتلقي ، وجب على المرسل انتقاء المفردات الملائمة للمعنى الذي يريد إيصاله إلى المتلقي، حتى تستقيم عملية التواصل بين الطرفين ، ومن ثمّ سينعكس اختيار مفردات الكلام على أصوات المفردات أيضًا ، وهذا يحتّم على المرسل أن يختار الألفاظ المنسجمة صوتيًا من حيث مخارج أصوات المفردة الواحدة، وصفاتها الصوتية طلبًا لإكمال عملية التواصل بين الطرفين (= المرسل والمتلقي) . يقول أحد الباحثين المحدثين : " إذا كانت سمة الفصاحة تتحقق لدى المتكلم بوضوح النطق ، وطلاقة اللسان ، فإن فصاحة الكلمة تتحقق بالتناسق أو التآلف الصوتي الذي يجعل النطق باللفظ سهلا خفيفًا على اللسان من جهة ، كما يجعل أثره السمعي واضحًا مقبولًا على الأذن من جهة أخرى "[15] . إذن يمكننا القول إن الانسجام الصوتي يُعنى بطرفي المعادلة التواصلية على حدٍّ سواء ، ولا ينحصر الأمر بالطرف الأول دون الثاني .

فإذا صادف أن اقترب مخرج أحد الأصوات من مخرج الصوت المجاور له في لفظة ما عند صياغتها على أحد الأوزان الصرفية سيلجأ المرسل إلى استعمال النظير الصوتي لذاك الصوت الذي أثقل المفردة ، ولكن ليس على حساب معنى المفردة ، فعند صياغة (ذكر) على (مفتعل) ستكون (مذتكر) ، وهذه المفردة يعتريها التقريب من ناحية الصفة أولًا ، ثم التقريب من ناحية المخرج ثانيًا ، أي :

مُذْتَكِر = تقريب همس التاء من جهر الذال ، فتستحيل دالًا (= نظير صوتي مجهور للتاء)

مُذْدَكِر = تقريب مخرج الذال من مخرج الدال ، فتستحيل دالًا (= نظير صوتي شديد للذال)

مُدْدَكِر = إدغام الدال في الدال للعمل من وجه واحد (= مدَّكِر)[16].

وقد وردت هذه اللفظة في الاستعمال القرآني ست مرات ، منها قوله تعالى " (**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**) القمر/17 وفي الآيات 22 و32 و40 .

ولم يكن الأمر غفلًا عند القدامى ، فقد أشار علماء العربية إلى ضرورة مراعاة الانسجام الصوتي بين أصوات المفردة الواحدة على مستوى المخارج من جانب ، وعلى مستوى الصفات الصوتية من جانب آخر ، طلبًا لانسيابية هذه المفردات بيسر وسهولة من المرسل ، ووقعها الموسيقي المؤتلف في أذن المتلقي ، مع الأخذ بأن هذا الانسجام الصوتي لا يكون قانونًا يمكن تطبيقه على اللغات جميعًا ؛ لأن " القوانين الصوتية بوجه عام محدد بالزمان والمكان ، إذ إن اللغات تستجيب لها كلٌّ من قِبَل نظامها وطريقة نطقها والعادات النطقية التي نشأ عليها أهلها ، وهي بهذا لا تشبه القوانين الفيزياوية أو الكيمياوية التي لا يمكن الخروج من ربقتها ، بل إن إطلاق صفة قانون عليها هو إلى المجاز أقرب منه إلى الحقيقة "[17].وجاء في (المزهر) أن" رتب الفصاحة متفاوتة ، فإن الكلمة تخفت وتثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف لا يلائمه قربًا أو بعدًا "[18] .

ولا يكون الانسجام الصوتي في مخارج الأصوات فحسب ، بل بين صفات الأصوات المتجاورة في المفردة الواحدة ، فعند صياغة أصل ثلاثي على صيغة معينة فإنها تُلحق في كثير من الأحيان بأصوات زائدة ، نحو اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو المصادر، أو غير ذلك . وهذه الأصوات الزائدة تكون في بعض الصيغ ثقيلة على اللسان عند تجاورها مع الأصوات الأصلية للمفردة ، فيصار إلى استبدال نظائرها الصوتية بها طلبًا للانسجام الصوتي ، وتخلصًا من الثقل والنفور في المفردة مع مراعاة عدم تغير المعنى .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء على (الافتعال) (مثل: افتعل، ويفتعل، وافتعال، ومفتعل ...) فالأصول الثلاثية نحو (طلع ، دعا ، دان ، دخر ، زجر ...) عند صياغتها على ما تقدم ستكون (اتْطَلع ، يتْطَلع ، اطْتلاع ...) ولا شك أن صعوبة النطق بهذه الكيفية ستكون حائلًا بين طرفي عملية التواصل لما يعانيه المرسل من صعوبة التلفظ وما يعانيه المتلقي من نفور وثقل في الاستماع، فيلجأ المرسل إلى استعمال النظائر الصوتية للأصوات المسببة للثقل في المفردات المتقدمة ، فيكون نطقها (اطّلع ، يطّلع ، اطّلاع ، مطّلع ...) .

وما أود الإشارة إليه أن استعمال المرسل للنظير الصوتي في ما تقدم لا يولد غرابة، أو استهجانًا لدى المتلقي، كون المرسل استعمل أصواتًا أخرى بدلًا من الأصوات الأصلية

للمفردة ، بل على العكس تمامًا ، فلو صار المتلقي هو المرسل الثاني لعمل بما عمل به المرسل الأول في استبدال النظائر الصوتية بالأصوات الأصول .

وأغلب الظنّ أن ذلك يصب في أحد المفاهيم الأساسية التي قامت عليها (التداولية) ألا هي (متضمنات القول) ، التي بينها الدكتور مسعود صحراوي بقوله : " مفهوم تداولي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب ، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره . ومن أهمها :

1- الافتراض المسبق : في كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم . تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل ، وهي محتواه ضمن السياقات والبنى التركيبة العامة "[19].

إذن استعمال النظائر الصوتية بدلًا من الأصوات الأصول في المفردة مما اتُّفقَ عليه بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد ، أو لنقل إنه من المسلمات المتعارف عليها في استعمال الرسالة الصوتية بين المرسل والمتلقي . وهذا ما أكده الدكتور أحمد محمود نحلة بقوله : " يرى علماؤنا أن استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبناؤها في ألفاظها وصيغها وتراكيبها ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس " [20] ، فألفاظها تكوّنها الأصوات ، فإذا حَسُنَ ائتلاف أصوات اللفظة حسُنت اللفظة نفسها، وهذا ما يدعم عملية التواصل بين المرسل والمتلقي .

وقد أولى علماء العربية الأوائل هذا الأمر اهتمامًا ملحوظًا ، إذ ذكر الجاحظ (ت 255هـ) " أن البيان يحتاج إلى ... تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخارج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن وإن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة ، وإن ذلك من أكبر ما تُستمال به القلوب وتنثني إليه الأعناق وتزين به المعاني "[21] . ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر بقوله : " حروف الكلام ... تراها متفقه لمسًا ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكّده ، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مؤاتيه سلسة النظام خفيفة على اللسان ... حتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد "[22]. ويتبيّن مما تقدم أن استعمال النظير الصوتي في المفردات هو لتخفيف الكلام على لسان المرسل ليكون أكثر تأثيرًا في نفس المتلقي ، وأكثر استمالة لقلبه حتى تثمر عملية التواصل ويأتي الفعل الكلامي أكلهُ في إبلاغ الفائدة .

وخلاصة ما تقدم أن المرسل إذا صاغ مفردة على وزن من أوزان العربية ولحقته الزوائد الصرفية ، وأدّت هذه الزوائد إلى تنافر بين مخارج أصوات المفردة المصاغة أو صفاتها الصوتية ، أو أحدثت ثقلًا مستكرهًا في عملية النطق ، ألزمه الأمر الاستعانة بالنظير الصوتي للصوت المسبب للنفور أو الثقل ، سعيًا منه إلى ديمومة التواصل اللغوي بين طرفي المعادلة التواصلية . والأمثلة المتقدمة يتضح فيها استعانة المرسل بالنظير الصوتي بوصفه الملاذ

الآمن الذي يلجأ إليه . وهذا الانسجام الصوتي بين أصوات المفردة الواحدة لا يصب في مصلحة المرسل فحسب ، بل المتلقي معنيٌ أيضًا بهذا الانسجام ، فسلاسة الكلام وخفّته على لسان المرسل له وقع أكبر في نفس المتلقي لما يريد المرسل أن يطرحه من أفكار أو معانٍ .

2- الاقتصاد اللغوي

الاقتصاد اللغوي يعني أن يبلغ المتكلم أكبر عدد ممكن من الفوائد بأقل كمية من الجهود الذهنية والعلاجية لآلة النطق ، وتكثيف الأداء واختزاله لنقل الأفكار ووسائل تعبيرية مُيسّرة ، وأن يكون هناك تكافؤ وتوازن بين المجهود الفكري والعضلي والفائدة المرجوّة من وراء هذا الاقتصاد[23] . والاقتصاد اللغوي من سمات اللغة العربية البارزة على مستويات الدراسة اللغوية ، فيكون على مستوى النص ، والجملة ، والمفردة ، وحتى على المستوى الصوتي الذي يُعد النظير الصوتي من أبرز العوامل المؤثرة فيه[24] .

وقد حدد أندريه مارتيني مبدأ الجهد الأدنى بقوله : " إن الإنسان يميل إلى بذل أقل جهد ممكن في تحقيق هدف ما . وينظم هذا المبدأ تطور اللغة بحيث ينشأ توازن بين ضرورات التواصل التي تتجه نحو تعقيد النظام اللغوي من جهة ، ومن جهة أخرى بين كسل الإنسان الذي يميل – في عملية النطق ، وعلى مستوى التفكير والتذكر – إلى أبسط الوحدات اللغوية "[25] . وقد كان هذا المفهوم حاضرًا بقوة في كتب علماء العربية الأوائل ، لا سيّما من تحدث عن مخارج الأصوات وصفاتها ، فسيبويه – مثلًا – يقول في كتابه : " وقالوا في مفتعلٍ من (صبرت) : (مصطبرٍ) أرادوا التخفيف حين تقاربا ، ولم يجز إدخال الصاد فيها ، فأبدلوا مكانه أشبه الحروف بالصاد وهي الطاء ليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد من الحروف ؛ وليكون عملهم من وجه واحد "[26] . فاستعمال الألسن في ضرب واحد ، والعمل من وجه واحد هو من مبدأ الجهد الأقل ، الذي عرّفه الأصواتيون بأنه " ميل اللغة إلى الاختصار في التعبير وتسهيل النطق . فما يحدث للأصوات اللغوية من تقديم أو تأخير أو إجهار أو إهماس أو مماثلة أو مخالفة يمكن في كثير من الحالات تفسيره في ضوء مبدأ الجهد الأقل "[27] .

فمبدأ الجهد الأقل وإن كان يراعي العنصر الرئيس في عملية التواصل (المرسل) إلّا أنه ضروري لهذه العملية ؛ لأن " المرسل هو مصدر الخطاب المقدّم ، إذ يعتبر ركنًا حيويًا في الدارة التواصلية اللفظية ، فهو الباعث الأول على إنشاء خطاب يوجّه إلى المرسَل إليه في شكل رسالة "[28] . فاستعمال المرسل للنظير الصوتي للصوت الأصل يُمكّنه من تحقيق مبدأ الجهد الأقل في آلة النطق ، لذا يجب " أن يكون المرسل على لياقة كافية – ولو في مستواها الأدنى – تسمح له بتوجيه الخطاب في شكله المنطوق (الأداء المباشر) ... لأن الرسالة اللفظية تتطلب قدرة فيزيولوجية على بثّها "[29] .

فكلما تيسّرت الألفاظ ولانت وخفّت وأراحت الطرف الأول في نطقها من حيث الانسجام الصوتي، أو الاقتصاد اللغوي كانت عاملًا مساعدًا في استمرارية العلاقة التواصلية بين طرفي هذه العلاقة (المرسل والمتلقي) .

3- الأغراض الدلالية

عند تتبع بعض الأوزان الواردة في القرآن الكريم نجد أن كثيرًا من الصيغ الواردة فيه كان للنظير الصوتي أثر فاعل فيها ، وهي تندرج تحت مفهوم الانسجام الصوتي ، أو الاقتصاد اللغوي ، والشواهد على ذلك كثيرة يطول المقام بذكرها . لكن اللافت للانتباه أن هناك صيغًا وردت في القرآن الكريم على (تفاعل) – مثلًا – منها: (اثّاقلتم) التوبة/38 ، و(ادّارءتم) البقرة/72 ، و(ادّاركوا) الأعراف/38 . يقول المفسرون عنها : " وأصله تثاقلتم ، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ، ومثله اداركوا ، وادارأتم ، ، واطّيرنا ، وازّينت "[30] . وهذا مذهب علماء العربية أيضًا ، يرون أن التاء في (تفاعل) أدغمت في الثاء أو الدال[31] . ولكن استعمال المرسل للنظير الصوتي في المفردات المتقدمة لا يمكن أن يندرج تحت مفهوم الانسجام الصوتي ، أو الاقتصاد اللغوي ؛ لأن هناك ألفاظًا أخرى في القرآن الكريم توافرت لها البيئة الصوتية نفسها ، ولم يجر عليها ما جرى على الأمثلة المتقدمة ، نحو (تداينتم) البقرة/282 ، و(تظاهرا) القصص/48 ، فلو كان الغرض من استعمال النظير الصوتي في (اثّاقلتم) وما شاكلها هو الانسجام الصوتي، أو الاقتصاد اللغوي لكان القياس في هذين اللفظين أن يكونا (ادّاينتم ، واظّاهرا) ، فيتضح أن هذا الأمر خرج من مفهوم الانسجام والاقتصاد ودخل في مفهوم الدلالة ، فقد صرّح التداوليون " أن لكل لفظة دلالة خاصة ، فحينما نستعمل لفظة دون أخرى ، نحملها دلالة دون غيرها ونعلم أنها قادرة على إيصال مقاصدنا التي نريدها إلى مستمعينا ، فالاختيار لم يكن بطريقة اعتباطية "[32] . فلا شك في أن استعمال النظير الصوتي في (تثاقلتم) حتى صارت (اثّاقلتم) ولّدَ دلالة جديدة لا تؤديها لفظة (تثاقلتم) فاستعمال النظير الصوتي الممهد للإدغام جاء لأغراض دلالية ؛ لأن لها معنًى أخصّ وأدقّ من معناها وهي من دون إدغام (= تثاقلتم) ، فعندما " تسمع الأذن قوله (اثّاقلتم) التوبة/38 ، فيتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل ، يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط من أيديهم في ثقل ، أن في هذه الكلمة (طنًّا) على الأقل من الأثقال ، ولو أنك قلت تثاقلتم لخفّ الجرس ، و لضاع الأثر المنشود ، و لتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ ، واستقل برسمها "[33] ، وكذلك " هي بجرسها تمثل الجسم المسترخي ... وما لها من جاذبية تشدّ إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح "[34] . والدلالة هي أحد الأركان الرئيسة التي بنى عليها تشارلز موريس تقسيمه للاختصاصات التي تعالج اللغة وهي[35] :

1- **علم التراكيب** : ويُعنى بدراسة العلاقات الشكلية بعضها ببعض .

2- **علم الدلالة** : ويدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها أو تحيل إليها .

3- **التداولية** : وتدرس علاقة العلامات بمستعمليها ، أو دراسة استعمال اللغة ؟

وقد أولى علماؤنا الأوائل الدلالة أهمية كبيرة في دراساتهم وبحوثهم اللغوية ، وأثرها في عملية التواصل بين المرسل والمتلقي ، إذ صرّح السيوطي بـ" أن صناعة النحو قد تكون فيها الألفاظ مطابقة للمعاني وقد تكون مخالفة لها إذا فهم السامع المراد ، فيقع الإسناد في اللفظ إلى شيء ، وهو في المعنى شيء آخر إذا علم المخاطب غرض المتكلم ، وكانت الفائدة في كلا الحالتين واحدة "[36] . وعلّق الدكتور مسعود صحراوي على نص السيوطي بأنه ذكر في هذا النص مبدأين تداوليين : غرض المتكلم ، ومراعاة حال السامع من أجل حصول الفائدة التي يجنيها من الخطاب[37] . فغرض المرسل هو الذي جعل استعمال (اثّاقلتم) – بنظيرها الصوتي – بدلًا من (تثاقلتم) على تفاعلتم .

فغرض المرسل أو قصده كان سببًا في استبدال النظائر الصوتية بالأصوات الأصلية في الأمثلة المتقدمة . ومبدأ (الغرض) أو (القصد) " يُراد به – في تصور نحاتنا القدامى – الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب وقصده منه ، وعليه تكون (مراعاة الغرض من الكلام) في عرف أغلب النحاة قرينة تساعد في تحديد الوظيفة النحوية للكلمة وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة ... وهي المعاني التي تعارف عليها المعاصرون باسم (القصدية) [38].

وكتب التراث العربي زاخرة بالشواهد التي تقوم على مبدأ القصدية في استعمال لفظ دون سواه ، أو استعمال النظير الصوتي بدلًا من الصوت الأصل في المفردة لبيان اختلاف قصدية المرسل ، وسأعرض شاهدين من كتاب الخصائص لابن جني :

الأول : " قالوا (قضم) في اليابس ، و(خضم) في الرطب ، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف "[39] .

الأخر : " قوله سبحانه وتعالى (ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا) أي تزعجهم وتقلقلهم . فهذا في معنى تهزّهم هزًّا ، والهمزة أخت الهاء [نظير صوتي] فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة "[40]. فيتبيّن أن استعمال (القاف) في (قضم) بدلًا من نظيره الصوتي الخاء في (خضم) ، واستعمال (الهمزة) في (أزّ) بدلًا من نظيره الصوتي (الهاء) في (هزّ) ، جاء لأغراض دلالية يحكمها مبدأ القصدية، أو غرض المتكلم في إيراد معانٍ أكثر تأثيرًا من معانيها قبل استعمال نظائرها الصوتية .

4- سياق المقام

التداولية تبحث في كل ما من شأنه أن يقرب الفهم والتواصل بين المتكلم والسامع ، فهي تبحث في السياق وفي كل الظروف التي يمكن أن تساعد المستمع ، وتحرك كفاءته ومقدرته للوصول إلى معاني المتكلم ومقاصده وأغراض كلامه[41] . ولسياق المقام أثر في بعض حالات الاستبدال التي تتم بين الصوت ونظيره ، فالمتكلم لا ينطق أصوات مفردة معيّنة بالآلية نفسها إذا تغيّرت ظروف المقام . وتختلف الأصوات نفسها بين الكلام المتأني والكلام السريع ، على وفق ما يمرّ به الناطق من المواقف[42] . فصوت الكاف المهموس " قد يُجهر به أحيانًا في بعض المواقع ، كما في نحو (أكبر) في الكلام غير المتأني أو في بعض الأساليب اللغوية ، حيث يقترب من صوت الجيم المسمى جيم القاهرة (g) في صفة الجهر "[43] ، فاستبدال النظير الصوتي غير العربي (g) بصوت الكاف كان سببه سياق المقام .

والصوت في اللغة له وجود مستقل إذا نُطق منعزلًا عن السياق ، وله وجود آخر هو المقيّد في التركيب ، وقد يفقد الصوت شيئًا من خصائصه ، أو يكتسب خصائص أخرى . فالباء في (كَتَبْت ، وسَبْت) ومما هو من بابهما ، وقد فَقَدَ جهره وأصبح مهموسًا[44] . فاستعمال النظير الصوتي المهموس غير العربي (p) للصوت(ب) المجهور جاء تحت سطوة المقام الذي نُطق فيه هذا الصوت بتأثير الصوت السابق واللاحق له .

وقد أكد التداوليون أن " لكل رسالة مرجع تحيل عليه ، وسياق معيّن مضبوط قيلت فيه ، ولا تفهم مكوناتها الجزئية أو تفكك رموزها إلّا بالإحالة على الملابسات التي أنجزت فيها هذه الرسالة قصد إدراك القيمة الإخبارية للخطاب "[45] . فالمكونات الجزئية للفظة (= الأصوات) تحتكم للملابسات أو سياق المقام الذي نُطقت به هذه الأصوات ؛ لذا فاختلاف المقام يسبب في بعض الأحيان اللجوء إلى النظير الصوتي في لفظة معيّنة . فأحيانًا قد تختلف القراءة – مثلًا – بين السرعة والتأني ؛ لذا نبّه علماء التجويد على ضرورة التأني في القراءة وقراءة القرآن الكريم ، وإعطاء كل صوت حقه ومستحقه ، لئلا يلتبس بنظيره الصوتي، أو ما يشابهه من أصوات . وعلى سبيل المثال لفظة (يسجدون) ، فالسين " إن أتى ساكنًا وبعده جيم ، أنعم بيانه ، لُخّصَ لفظه ، ومنع من الجهر ، وإلّا انقلب زايًا ، لما بين الزاي والجيم من الجهر "[46] . ومصداق آخر من القرآن الكريم ، قوله تعالى (والبحر المسجور) الطور/6 . فإذا لم يُراعَ فيه المقام بالقراءة المتأنية قُلبت السين إلى نظيرها الصوتي الزاي وصارت (مزجور) ولا شك أن الفرق بين (مسجور) و(مزجور) كبير جدًا يؤدي إلى اختلاف الدلالة ومما يُراد طرحه من معنًى .

الخلاصة

إن أهم ما خَلُصَ إليه البحث الآتي :

- إن الجانب الصوتي هو أحد المرتكزات التي بُنيت عليها التداولية ، ولا سيّما الأصوات المفردة . فمن البديهي أن تبدأ الدراسات اللغوية من الجزء انطلاقًا نحو الكل ، فالبدءُ بدراسة الأصوات المفردة المكوّنة للألفاظ من حيث انسجامها داخل السلسلة الصوتية الحاضنة لهذه الأصوات سيسهم بصورة كبيرة في ديمومة التواصل بين طرفي المعادلة التواصلية (= المرسل والمتلقي).
- على الرغم من كثرة اهتمام التداوليين بالمفردة والجملة في استعمال اللغة ، وندرة الدراسات التي تُعنى بمكونات هذه المفردات (الأصوات المفردة) فقد ثبت – عندي – أن النظير الصوتي من خلال علل استعماله بوصفه بديلًا عن الأصوات الأصول في المفردة ، له أثر فاعل في البحث من وجهة نظر تداولية . فقد استُعمل النظير الصوتي ليكون الملاذ الآمن الذي يلجأ إليه المرسل طلبًا للخفة والانسجام الصوتي في المفردة ، فضلًا عن أن استعماله يمكن أن يأتي لأغراض دلالية ، أو لأجل الاقتصاد اللغوي ، أو ما يفرضه سياق المقام أو الحال . وأغلب ظنّي أن استبدال النظير الصوتي بالأصوات الأصول يضفي على رسالة المرسل (اللغة) السلاسة والخفّة التي يبتغيها المرسل ، ومن ثمّ وقعها الموسيقي المؤتلف في أذن المتلقي ، الذي ينشد الفائدة من هذا التواصل .

والحمد لله ربّ العالمين .

الهوامش

---

1 - ينظر : مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه : 44 .
2 - ينظر : م. ن : 47 .
3 - ينظر : التداولية (بحث) : 88 .
4 - التداولية عند العلماء العرب : 15 .
5 - مدخل إلى علم النص : 50 .
6 - ينظر : التداولية (بحث) : 89 .
7 - التداولية عند العلماء العرب : 26 .
8 - البيان والتبيين : 76 .

9 - كتاب العين : (نظر) 156/8 .
10 - ينظر : النظير الصوتي في العربية ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث (ماجستير) : 31 – 32 .
11 - ينظر : م . ن : 140 .
12 - النظير الصوتي في العربية : 61 .
13 - ينظر : م . ن : 181 ، و183 ، و187 .
14 - ينظر : م . ن : 160 .
15 - أدوات النص : 25 .
16 - النظير الصوتي في العربية : 143 .
17 - في الأصوات اللغوية ، دراسة في أصوات المدّ العربية : 49 .
18 - المزهر في علوم العربية وأنواعها : 156/1 .
19 - التداولية عند العلماء العرب : 30 .
20 - آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : 85 .
21 - البيان والتبيين : 23/1 .
22 - البيان والتبيين : 50/1 .
23 - ينظر : الاقتصاد اللغوي في العربية (أطروحة دكتوراه) : 24 .
24 - ينظر : النظير الصوتي في العربية : 147 .
25 - نقلًا عن : علم الأصوات اللغوية ، د. بسّام بركة : 96 .
26 - الكتاب : 468/4 .
27 - معجم علم الأصوات : 151 .
28 - التواصل اللساني والشعرية ، مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون : 24 .
29 - م . ن : 25 .
30 - تفسير القرطبي : 120/8 ، وينظر : تفسير الطبري : 152/10 ، وفتح القدير : 129/1 .
31 - ينظر : معاني القرآن للفراء : 328/1 ، ومعاني القرآن للأخفش : 554/2 .
32 - التداولية (بحث) : 90 .
33 - التصوير الفني في القرآن : 88 .
34 - في ظلال القرآن : 223/10 .
35 - ينظر : مدخل إلى علم النص : 48 .
36 - الأشباه والنظائر في النحو : 173/3 .
37 - ينظر : التداولية عند العلماء العرب : 201 .
38 - التداولية عند العلماء العرب : 200 .
39 - الخصائص : 65/1 .

40 - الخصائص : 146/2 .
41 - ينظر : التداولية (بحث) : 92 .
42 - ينظر : النظير الصوتي في العربية : 160 .
43 - علم اللغة العام : 36 .
44 - اللسانيات : 79 .
45 - التداولية (بحث) : 90 .
46 - التحديد في الإتقان والتجويد : 320 .

المصادر والمراجع

1. أدوات النص ، دراسة . د. محمد تحريشي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 2000 م.
2. الأشباه والنظائر في النحو . للشيخ العلّامة جلال الدين السيوطي (ت911هـ) ، تحقيق : محمد عبد الله ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، 1986 م .
3. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . د. محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، 2002 م.
4. الاقتصاد اللغوي في العربية (أطروحة دكتوراه) . ندى سهام إسماعيل البياتي ، جامعة بغداد ، كلية التربية للبنات 2009 م – 1430 هـ .
5. البيان والتبيين . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط7 ، 1998 م.
6. التحديد في الإتقان والتجويد . أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانيّ الأندلسي (ت444هـ) ، تحقيق ودراسة : د. غانم قدوري الحمد ، دار عمار ، عمّان ، ط2 ، 1999م.
7. التداولية . أ. سحالية عبد الحكيم ، بحث منشور في مجلة المخبر ، قسم الأدب العربي ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد الخامس ، مارس 2009م.
8. التداولية عند العلماء العرب . د. مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، بيروت .
9. التصوير الفني في القرآن . سيد قطب ، دار الشرق ، القاهرة ، ط26 ، 2002م.

10. التواصل اللساني والشعرية ، مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون . الطاهر بومزبر ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ط1 ، 2007م.
11. الخصائص . أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت392هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .
12. علم الأصوات العام . د. بسام بركة ، مركز الإنماء القومي ، لبنان .
13. في الأصوات اللغوية ، دراسة في أصوات المدّ العربية . د. غالب المطلبي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية للنشر ، 1984م.
14. في ظلال القرآن . سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1967م.
15. الكتاب . أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت180هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .
16. مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه . د. محمد الأخضر الصبيحي ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2008م.
17. المزهر في علوم اللغة وأنواعها . جلال الدين السيوطي (ت911هـ) ، تحقيق : فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998م.
18. النظير الصوتي في العربية ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث (رسالة ماجستير) . فؤاد عجمي علي ، جامعة كربلاء ، كلية التربية ، 2013 م.